مزالق التفكير

كتبت بعد تصفح كتاب « اميل » لجان جاك روسو

لفتا نمياء

من البديهيات ان محاربة المرض لا تستلزم اعدام المريض . بل على الضد من ذلك ، ان الحرص على حياة المريض وسلامته هو الداعي الاول لمحاربة المرض والسعي في استئصال شأفته . وقد اخطأ كثيرون من المفكرين هذا الخطأ الفاضح . ومنهم جان جاك روسو ، احد اساطين الادب في القرن الثامن عشر ، وكان ندًّا لفولتير وديدرو ولافري وهلفتيوس . وزاد عليهم تفكيره الخاص ، الذي يلخص في العبارة الشهيرة (عودوا الى الطبيعة)

هذا هو نداء روسو الذي هزَّ به العالم هزًّا عنيفاً . رمى به الى محاربة المدنية والهيئة الاجتماعية والعلم والفن . زاعماً ان اضرار العلم تربي على فوائده . فهو يؤثر الجهل على العلم ، والفطرة على العقل ، والهمجية على الحضارة ، والحيوانية على الانسانية . على انهُ فات روسو ، ومن نحا نحو روسو ، ان الحضارة والعلم والفن والارتقاء هي من الطبيعة التي يدعونا اليها قائلاً (عودوا الى الطبيعة) زاعماً ان تلك الاشياء منافية للطبيعة فالحضارة والارتقاء والهيئة الاجتماعية والعلوم والفنون والسياسة والصحف والجمعيات والاندية وما شاكل ذلك ، هي فروع شجرة الطبيعة . كانت فيها ، اولاً ، بالقوة ، فصارت بعد ذلك بالفعل . فهي في الطبيعة كالنطق والتوليد في الطفل او في الجنين. فان الجنين ، بل والوليد ايضاً ، لا يرى ، ولا يعي ، ولا ينطق ، ولا يمشي ، ولا يلد . ولكن هذه القوى ، وغيرها من الاوضاع البيولوجية والانسانية ، هي فيه بالقوة ، متى كان جنيناً في ظلمات الارحام . فتبدو فيه بالفعل بعد ولادته ، متى حان زمانها ولاءمتها الاحوال . فليست صفة النطق مثلاً ، منافية للطبيعة ، بدعوى ان الوليد لم يكن ينطق ثم نطق . ولا يجوز لنا ان نقول للناطقين (عودوا الى الطبيعة) بمعنى (اوصدوا افواهكم ، وكفوا عن الكلام) لان النطق طبيعي في الانسان وان تأخر ظهوره . كذلك الفسل طبيعي ، والامر بالتبتل مخالف للطبيعة . كذلك العلم والفن والابداع والحضارة والارتقاء ، وأمثال هذه المعاني ، هي طبيعية فينا ، اولاً بالقوة ثم بالفعل . فكانت اولاً

كامنة في الانسانية كون الحرارة في اوراق النبات واخشابه . فبرزت الى حيّز الوجود لما تسنت لها الاحوال الملائمة المعروفة في العلم والصناعة

فهل يجوز لنا ان نقول للاخشاب عودي اوراقاً خضراً ، وللرجال عودوا اطفالاً واجنّة ؟ كلاّ . ومحارب الطبيعة مغلوب . فلا ثمرة تعود زهرة . ولا شجرة تعود بذرة ، ولا حيوان يعود جنيناً ، ولا نهر يرجع الى مصدره ، ولا ابن الخمسين يرجع الى سن العشرين او ما دون العشرين . تلك امور ضد الطبيعة

***

الفرد الانساني وليداً ، لا يحسن النطق ولا الغناء ولا الرقص ولا الشعر ولا المقايسة ولا الادارة ولكن لا نكير بان النطق والفن والمنطق والهندسة والسياسة والحب والابداع هي مكنونات صدره وكامنة في نفسه طبعاً . فلا يمكن انتزاعها منه الاّ باعدام حياته . وذلك ضد الطبع في خط مستقيم فالرجوع من العلم الى الجهل ، ومن الحضارة الى الهمجية ، ومن الفن والابداع الى الحيوانية والجمود ، ليست عوداً الى الطبيعة ، بل شذوذ عن الطبع . فلا امة راقية ترتدّ بحكم الطبع همجية او متوحشة لان التوحش والهمجية والبداوة في الامم اطوار ، كالطفولة والصبوة والشباب والكهولة في الافراد فهل يجرم الطفل اذا صار شاباً ؟ كلاّ . فلماذا تجرم الامة ؟

اذا ارتقت من طور البداوة الى طور الحضارة والارتقاء ؟ فنداء روسو « بالعود الى الطبيعة » هو من قبيل تهافت الفلاسفة

اذا كان العلم والمدنية والارتقاء قد اضرّت فهي ايضاً قد نفعت . ولا يجوز القول بالغائها بداعي اضرارها . فان النار تحرق وتدمر ، ولكنها ايضاً نافعة في الطهي والخبز والصناعة ، فلا يقول احد باخماد النيران . كذلك القطارات الحديدية والسيارات وغيرها من وسائل النقل الحديث قد تضر . ولكن ما قال احد باستئصالها بداعي الاضرار الاّ تولستوي الروسي ، فانه اقتفى اثر روسو فقال بان هذه الاشياء قسوة وتوحش ، فيلزم العدول عنها الى الحال القطرية

ولكن قول تولستوي كقول روسو ، هو من قبيل تهافت الفلاسفة . ولا يلزم عن اضرار الآلات الحادة كالسيف والسكين ونحوها من مبضع ومشرط ، الغاءها بداعي اضرارها . كذلك لا يجوز العدول عن المدنية والعلم والفن والابداع بداعي انها تضرّ احياناً

على ان الارتقاء يسير في خط لولبي . والخط اللولبي معروف . فيظهر كأنه التفّ راجعاً الى حيث كان . على انه لم يعد في سطح واحد ، بل في سطح اعلى . ومن ظنّ خلاف ذلك كان واهماً

كذلك النهر يجري على سطح الارض في خط كثير التعاريج . وقد يتحول في عكس مجراه الاجالي كنهر الكنج مثلاً . فانه يصدر من قلب جبال الايه فيجري شمالاً ، ثم ينعطف شرقاً ، فغرباً فجنوباً . على انه في كل من تلك الاقسام يتعرّج كثيراً . وليس ثمة نهر يسير في خط هندسي مستقيم . افليس هذا

شأن الانسانية في مجراها كثيرة التعاريج ولكنها تسير الى الامام اجمالاً . واذا اعترض مجرى الماء حائل، كالهضبة مثلا ، فانه لا يرتد الى الوراء ، بل يحاول الالتفاف بها ، واستئناف مجراه الاصلي . وكذلك الانسانية فانها تسير وجهة الحضارة والارتقاء ، فاذا اعترضتها ازمة او عرقل سيرها حائل ، حاولت الالتفاف واستئناف سيرها بما فيها من مرونة . هي سنة الطبع ، ولن تجد لسنة الطبع تبديلاً . وما لاح لك انه عود الى الطبيعة في مجرى الانسانية فهو من قبيل الحيد الموقتي . خذ مثالاً لذلك المذاهب الشيوعية ، ومذاهب العراة ، في هذه الايام . فانها لا تعني العودة الى الطبيعة ، انما هي محاولة الطبيعة التغلب على العقبات الكأداء التي تعترض سيرها الاجمالي . ومن هذا القبيل تحديد النسل ، وحل النظام العائلي ، والفوضوية والغاء النظم الادارية والجنائية . فهذه المذاهب او النزعات هي احد امرين ، اما انها امراض تنتاب الهيئة الاجتماعية ، او انها محاولات ترمي بها الطبيعة الى تطبيق احوالها على العوامل الجغرافية والتاريخية والاقتصادية . والتخلص من الازمات والعقبات . فالمطلوب من وراءها سلامة الحياة ، وادراك السعادة التي يحلم بها الانسان مذ كان في المهد طفلاً . فلا يعني البشر باعتناق هذه المذاهب الرجوع الى ماضيه ، كلاّ . بل التقدم والارتقاء . فهي ذرائع يتذرّع بها للوغ غاياته ومراميه ، التي بحقّ نحبها طبيعية

فان الطبيعة في الانسان ، وفي الحيوان ، وفي النبات ، وفي الجماد ، نزّاعة الى الامام ، والى التطور . وليس فيها رجوع . فان الماضي ، بحسب فلسفة برغسن ، يستمر في الحاضر ويغزو المستقبل لكنهُ لا ينقلب راجعاً . فالكل في التيار ، بحسب تفكير هيرقليطس ، والتيار الى الامام . هذا هو مجرى الطبيعة . اما الانقلاب رجوعاً فتحدٍّ للطبيعة ومنافاة لنواميسها

فالتوليد طبيعي كالتقليد . يراد بالتقليد الاحتفاظ بالطبيعة ، وبالتوليد التقدم بحسب نزوع الطبيعة . فالتقليد هجوع كالنوم والاجازة . والتوليد سعي كالشغل والنمو . وباجتماع التوليد والتقليد ينوغ الغرض الطبيعي . رحم الله هيغل المفكر الالماني الشهير . فقد رأى ان التقائض تؤلف اليقينية . فاليقينية ، او الذاتية ، عنده هي التقاء النقيضين . كالتقاء المادة والحياة . والذكر والانثى ، والليل والنهار ، والسلب والايجاب في المجرى الكهربائي والمغنطيسي . فكما ان السكون طبيعي كذلك الحركة طبيعية . وكلاهما ضروري لاستكمال اغراض الحياة . وكما ان النوم طبيعي كذلك اليقظة طبيعية . وكما ان موت الخريف طبيعي كذلك احياء الربيع . فالفصل بين النقيضين ، واجازة احدهما مع انكار الآخر ، كاجازة النوم دون اليقظة ، والجسد دون الحياة ، والقطب الايجابي دون السلبي ، فهو هدم للطبيعة وافتئات على ربها وعلى نواميسها

فمن التزم الجمود هلك هلاك من قبع على ذروة شاهق يغمرها الثلج والجليد . ومن التزم الاندفاع بكل تيار دون احتفاظ هلك هلاك من تدهور من ذروة شاهق الى هوة عميقة فتحطم على الصخور . فنقطة اجتماع النقيضين هو محل حكمة الطبيعة واصابة من يفهمها